الفصل التاسع

«حجة النبي ﷺ حجة الوداع»

حجَّ رسولنا المصطفى ﷺ حجة واحدة، لم يحجَّ قبلها ولا بعدها، تسمَّى «حجة الوداع» سميت بهذا الاسم، لأن النبي ﷺ ودَّع فيها أصحابه، وقال لهم فيما قال: أيها الناس، اسمعوا منِّي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا!!

وقد كان الأمر كما أخبر ﷺ حيث رجع من حجته إلى المدينة المنورة، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد عودته بـ ٨١ يوماً صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان يخبر بنور النبوة، ووحي الإلهام، بدنوِّ أجله، وكأنه يستشعر أن الدين قد اكتمل، بنزول قول الله تبارك وتعالى عليه في حجة الوداع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . .﴾[1] الآية فليس بعد كمال الدين وإتمام النعمة، إلا الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، وما الحياةُ الدنيا إلاَّ مَتَاعُ الغُرور!.

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

ميثاقُ الحقوق البشرية

في عرفات خطب رسول الله ﷺ خطبته الشهيرة، التي وضَّح فيها «حقوق الإنسان» وميثاق تعامل البشر، قبل أن يعرف الناس هذه الحقوق والمواثيق، إلاَّ منذ زمنٍ قريب، قررتها هيئة الأمم، وبقيت حبراً على ورق في هذه الدول والمنظمات.

أمَّا ما قرره الرسول ﷺ في حجة الوداع، فقد بقي نظاماً يُعمل، وقانوناً يُطبَّق، طبَّقه المسلمون عملاً لا كلاماً، وجعلوه منهجاً لهم في الحياة، لا بهرجاً ومداداً، ليس له أثر في الحياة، كما هو حال «حقوق الإنسان» في نظام وقرارات هيئة الأمم!!.

لقد كان حجة الرسول ﷺ وخطبته في عرفات، ومنى، مشعل نور وضياء، يضيء للبشرية طريق السعادة والهدى، ويأخذ بأيديهم إلى مدارج العزِّ والكمال... فما أن خرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة، وركب ناقته القصواء، حتى أعلنها صرخة مدوِّيةً صادقة، بريئة من الشرك، والنفاق والرياء «اللهمَّ حَجَّةً لا رياءَ فيها ولا سمعة» وبدأ رافعاً صوته، مهلِّلاً بالتوحيد، معلناً العبودية لله رب العالمين «لبَّيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا

شريك لك»[1].

إنها كلمات الإيمان الصادق الصافي، تفتحت لها أبواب السماء، ودوَّت لها جنبات الأرض، تنطلق من أفواه وحناجر المؤمنين، وهم يردِّدونها مع قائدهم ورسولهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وأنزل عليه الكتاب المبين... وفي هذه الساعات المباركات، كانت الأرض أسعدَ ما تكون بهذا الركب من الحجيج، الذي جاء ليلبي دعوة الله، مع أشرف وأفضل إنسان وطىء ثرى هذه الأرض «محمد بن عبد الله» خاتم الأنبياء والمرسلين، ومع أكرم وفدٍ سار لحج بيت الله العتيق!.

فما أعظمها من نعمة، وما أكرمها من رسالة، تنزلت من علياء السماء على خاتم الأنبياء، وأعلنها الرسول الكريم، في مشهد حافل في عرفات، على أرض الخير والطهر والصفاء، مشهدٍ عظيم مشهود، في أفضل يوم من أيام السنة، يزيد فيه العدد على مائة ألف إنسان، جاءوا طائعين ملبِّين الدعوة، ليقرِّر لهم القائد الأعظم ميلاد حقوق الإنسان، في وقت كانت تعجُّ فيه الأرض بالظلم والطغيان.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٤٠٨ ومسلم رقم ١١٨٤.

«حجة الوداع»
كما وردت في صحيح مسلم

ولنستمع إلى بعض هذه المقتطفات، من حجة الوداع، يرويها لنا الصحابي الجليل «جابر بن عبد الله» كما جاءت في أصح كتب الحديث النبوي الشريف، في صحيح الإمام مسلم، حيث روى لنا هذه الحجة المباركة.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال:

● **«إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحجَّ، ثم أَذَّن في الناس** - أي أعلن لهم - في العاشرة، أن رسول الله ﷺ حاجٌّ، فقدم المدينة بشرٌ كثير، كلهم يلتمس أن يأتمَّ - أي يقتدي - برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

● فخرجنا معه حتى أتينا «ذا الحليفة» - ميقات أهل المدينة - فصلَّى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء.

● **حتى إذا استوتْ ناقتُه على البيداء** - أي الصحراء - نظرتُ إلى مدِّ بصري - أي منتهى بصري - بين يديه من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثلُ ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك.

● **ورسول الله ﷺ بينَ أظْهُرنا**، وعليه ينزلُ القرآنُ، وهو يعرِفُ تأويلَه، وما عَمِلَ به من شيءٍ عملناه.

● **فأهلَّ بالتوحيد** ـ أي رفع صوته بالتلبية معلناً كلمة التوحيد ـ «لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمةَ لك والمُلْك، لا شريك لك».

● **وأهلَّ النَّاسُ بهذا الذي يهلُّون به**، فلم يردَّ عليهم رسول الله ﷺ شيئاً منه، ولَزِمَ رسولُ الله تلبيتَهُ.

● **قال جابر: لسنا ننوي إلاَّ الحجَّ**، لسنا نعرف العمرة ـ أي ما كانوا يعرفون جواز أداء العمرة في أشهر الحج، وهو «التمتع» إنما لا يعرفون في أشهر الحج، إلاَّ الإحرام بالحج فقط ـ.

● **حتى إذا أتينا البيتَ معه**، استلمَ الركنَ ـ يعني الحجر الأسود ـ فرمل ثلاثاً ـ أي أسرع في المشي ثلاثة أشواط ـ ومشى أربعاً ـ وهذا هو السُنَّةُ في طواف القدوم أن يهرول ثلاثاً ويمشي أربعاً ـ

● **ثم نفذ** ـ إلى مقام إبراهيم ـ أي شقَّ طريقه في الزحام إلى مقام إبراهيم عليه السلام ـ فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1] فجعل المقام بينه وبين البيت ـ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٥.

أي صلَّى ركعتين خلف مقام إبراهيم، والكعبة المشرَّفة أمامه ـ فقرأ في الركعتين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم رجع إلى الركن ـ أي الحجر الأسود ـ فاستلَمَه.

● **ثم خرج من الباب** ـ يعني باب بني مخزوم ـ إلى الصفا، فلما دنا من الصفا، قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾[1] أبدأ بما بدأ الله تعالى به.

● **فبدأ بالصفا فرقيَ عليه** ـ أي صعد فوق جبل الصفا ـ حتى رأىٰ البيت ـ يعني الكعبة المشرَّفة ـ فاستقبل القبلة، فوحَّد الله وكبَّره، وقال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصَرَ عبدَه، وهزم الأحزاب وحده» ثم دعا بين ذلك، قال مثلَ هذا ثلاث مرات.

● **ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبَّتْ قدماه في بطن الوادي** ـ أي انحدر نحو الوادي ـ سعىٰ ـ أي أسرع وهرول في مشيه ـ حتى إذا صعدتا مشىٰ ـ أي ارتفعت قدماه ﷺ عن بطن الوادي مشىٰ مشياً معتاداً.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٥٨.

● **حتى أتىٰ المروةَ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا** ـ يعني وحَّد الله وكبَّره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير...» إلى آخر الدعاء...

● **حتى إذا كان آخر طوافه على المروة**، قال ﷺ: «لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أسق الهَدْيَ، وجعلتُها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فَلْيَحِلَّ وَلْيَجْعَلها عمرة»[1].

● **فقام سُراقةُ بن مالك فقال يا رسول الله**: ألعامنا هذا أم لأبَدَ؟ ـ أي هل التمتع خاصٌ بعامنا هذا، أم هو جائزٌ إلى نهاية الدهر؟ ـ فشبَّك رسولُ الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، ثم قال: «دخلت العمرةُ في الحج،

---

(١) إنما أمر رسول الله ﷺ أصحابه الذين أحرموا بالحج، ولم يسوقوا الهَدْيَ، بأن يفسخوا الحج، ويجعلوه عمرة، لحكمةٍ تشريعية عظيمة، وهي: إبطال عادات أهل الجاهلية حيث كانوا ـ قبل الإسلام يعتقدون بأن العمرة في أشهر الحج، من أفجر الفجور، فكانوا إذا دخلت أشهر الحج لا يأتي أحدهم بعمرة خشية فساد الحج، إذ كيف يجامع الرجل زوجته، قبل أيام من الوقوف بعرفة، ثم يلبي بالحج ويذهب إلى عرفة، وإن ذكره ليقطر منياً، فكانوا يحرمون التمتع في أشهر الحج، فأمر الرسول أصحابه بالتمتع ليبطل هذا الاعتقاد السخيف!!.

دخلتِ العمرةُ في الحج» مرَّتين ـ أي قالها مرتين ـ لا، بل لأبد أبد!! ـ أي ليست خاصة بهذا العام، بل هي إلى نهاية العمر والدهر ـ.

● **وقدم عليٌّ من اليمن بُبُدْنِ النبي ﷺ** ـ أي بإبل النبي التي أهداها للحرم ـ فوجد فاطمةَ ممن حلَّ ـ أي تحلَّلت من حجِّها وتزيَّنت ـ ولبستْ ثياباً صبيغاً، واكتحلتْ، فأنكر ذلك عليها[1] ـ لأنها كانت محرمة بالحج ـ فقالت: إنَّ أبي أمرني بهذا ـ تعني رسولَ الله ﷺ.

● **قال جابر: فكان عليٌّ يقول بالعراق:** فذهبتُ إلى رسول الله ﷺ محرِّشاً ـ أي محرِّضاً له على فاطمة، للَّذي صَنَعتْ، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرتْ عنه ـ أي أنه أمرها بفسخ الحج وجعله عمرة ـ فأخبرتُ أني أنكرتُ ذلك عليها، فقال ﷺ: صَدَقَتْ، صَدَقَتْ... ماذا قلتَ حين فرضتَ الحجَّ؟ قال: قلتُ: اللهمَّ إني أُهِلُّ بما أهلَّ به رسولُك!! قال ﷺ: فإنَّ معي الهديَ فلا تحِلَّ.

---

(١) إنما أنكر عليٌّ على فاطمة الزهراء ذلك، لأنها خرجت من المدينة المنورة محرمةً بالحج، ومن أحرم بالحج لم يجز له التطيُّب ولا الاكتحالُ، ولا لبس المعصفر، فظنَّ أنها فسخت حجَّها من تلقاء نفسها، وأفسدت نسكها بمثل هذا الصنع، فلذلك أنكر عليها فعلها.

● **قال فكان جماعة ـ أي مجموع ـ الهَدْي الذي قَدِم به عليٌّ من اليمن**، والذي أتىٰ به النبيُّ ﷺ مائةً ـ أي مائة جمل ـ فحلَّ الناسُ كلُّهم وقصَّروا ـ أي تمتَّعوا فجعلوا حجهم عمرة ـ إلا النبي ﷺ ومن كان معه هديٌ.

● فلما كان يوم التروية ـ أي الثامن من ذي الحجة ـ توجَّهوا إلى منى، فأهلُّوا بالحج ـ أي أحرموا من مكة بالحج دون الرجوع إلى الميقات ـ وركب رسولُ الله ﷺ فصلَّى بها ـ أي بمنى ـ الظهرَ، والعصر، والمغربَ، والعشاءَ، والفجر ـ أي فجر يوم عرفة ـ ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس.

● **وأمَر ﷺ بقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضرَبُ له بنَمِرَة ـ أي** بمكانٍ بجانب عرفات ـ فسار رسولُ الله ﷺ، ولا تشكُّ قريشٌ إلاَّ أنه واقف عند المشعر الحرام ـ أي بمزدلفة ـ كما كانت قريشٌ تصنع بالجاهلية[1]، فأجاز ـ أي جاوز ـ

---

(١) كانت قريش في الجاهلية تقف في المشعر الحرام بمزدلفة، لأنها من الحرم ولا تقف بعرفة لأن عرفة ليست من الحرم، وكانوا يُسمَّون «الحُمْس» أي المتشددين في الدين، وكانوا يقولون: نحن جيرانُ الله، وأهلُ حرمه، لا نخرج من الحرم، فكان الناس يقفون بعرفة، وقريش تقف بمزدلفة في موسم الحج، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقف بعرفة، وأن يفيض منها بقوله تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي من عرفات، وردَّ الله سفه أهل الجاهلية.

رسُول الله ﷺ حتى أتىٰ عرفة، فوجد القُبَّة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها.

● **حتى إذا زاغت الشمس** ـ أي مالت جهة المغرب وهو وقت الزوال عند الظهر ـ أمر بالقصواء ـ أي ناقته ـ فرُحِلَتْ له ـ أي جُهِّزت له بوضع الرحل عليها ـ فأتى بطن الوادي ـ أي وادي عرفات والمراد به بطنُ عُرَنة ـ فخطب النَّاسَ في ذلك الجمع المشهود.

«مقتطفاتٌ من خطبة الرسول ﷺ في عَرَفات»

قال ﷺ بعد أن حمد الله تعالى، وأثنى عليه، ووعَظَ وذكَّر، قال:

● أيها الناس إن دماءكم، وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

«إبطال النبي ﷺ الربا والأخذ بالثأر»

● **ألاَ كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية، تحت قدميَّ موضوعٌ** ـ أي باطل ـ.

● **ودماءُ الجاهلية موضوعة**، وأول دمٍ أضعُ من دمائنا، دمُ ابنِ ربيعة بن الحارث، قتلته هُذَيلٌ.

● **وربا الجاهلية موضوعٌ**، وأوَّلُ رباً أضعه رِبَانَا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلُّه.

- أبطل الرسول ﷺ الأخذ بالثأر كما أبطل الربا، وبدأ بالأقارب من أهل الدماء، وأصحاب الأموال الربوية، بدءاً بالنفس، فما أقبحَ جريمةَ الربا!؟

«وصيّة النبي ﷺ بالنساء»

● **أيها الناس اتقوا الله في النساء** فإنكم أخذتموهنَّ بأمانِ الله - أي بوصية الله بالإحسان إليهن - واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله - أي بالعقد الشرعي بالنكاح الذي أباحه الله - ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه - أي لا يأذنَّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم - فإن فعلن ذلك - أي عَصَيْن أمركم وأسأنَ عِشْرتكم - فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح - أي ضرباً خفيفاً للتأديب، غير شديد ولا مؤذٍ - ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف - أي الإنفاق عليهن بالمطعم، والملبس، والمسكن، بالوجه الشرعي الذي أمر الله به وأوصى به -.

«وصيته ﷺ بالاستمساك بالكتاب العزيز»

● وقد تركتُ فيكم ما لَنْ تَضِلُّوا بعده، إن اعتصمتم به - أي تمسكتم به - كتابَ الله عزَّ وجل... وأنتم

تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيْتَ، ونصحتَ!! فقال بأصبعه السبابة - أي أشار بها - يرفعها إلى السماء، وينكبُها إلى الناس - أي يقلبها ويردِّدها مشيراً بها إلى الناس - «اللهمَّ اشْهَدْ... اللهمَّ اشْهَدْ... اللهمَّ اشْهَدْ» ثلاث مرات.

إنه مشهدٌ رائع، من مشاهد الخير والإيمان، يلتقي فيه القائد بالجند، ويضع فيه الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، أسس وقواعد حقوق الإنسان، في أطهر بقعة وأفضل مكان!! في أرض عرفات بجوار البلد الحرام.

«جمعه ﷺ بعرفة الظهر والعصر جمع تقديم»

● ثم أذَّن - يعني المؤذِّن - ثم أقام، فصلَّى رسولُ الله ﷺ الظهر، ثم أقام فصلَّى العصر، ولم يصلِّ بينهما شيئاً - أي لم يفصل بين الفريضتَيْنِ بشيء من السنن والنوافل.

«وقوفه ﷺ بجانب جبل الرحمة عند الصخرات»

● ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف - أي

المكان الذي بجوار جبل الرحمة - فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْل المُشَاةِ - أي جموع المشاة - بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص - أي قرص الشمس -.

«نزوله عليه السلام من عرفة وتوجهه إلى مزدلفة»

● وأردفَ أسامة بن زيد خلفه - أي أركبه وراءه على ناقته - ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق - أي ضمَّ وضيَّق - للقصواء الزِّمام، ويقول بيده اليمنى - أي يشير بيده قائلاً - أيها الناسُ، السَّكينةَ، السَّكينَةَ... حتى أتى المزدلفة، فصلَّى بها المغرب والعشاء، بأذانٍ واحد وإقامتين، ولم يُسبِّح بينهما شيئاً - أي لم يصلِّ بينهما نافلة -.

«نومه ﷺ بمزدلفة حتى الفجر»

● ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجرُ، وصلَّى الفجر حين تبيَّن له الصُّبْحُ، بأذانٍ وإقامة، ثم ركب القصواء - أي الناقة - حتى أتى المشعر الحرام - أي الجبل الذي هو بمزدلفة، وقد بُني عليه الآن مسجدٌ، يسمىّ: مسجد المشعر الحرام - فاستقبل القبلة فدعاه

وكبَّره، وهلَّله، ووحَّده ـ أي دعا الله عزَّ وجلَّ، وكبَّر الله بقوله: «اللَّهُ أكبر» وهلَّله بقوله «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

«توجهه عليه السلام إلى منى قبل طلوع الشمس»

● فلم يزل ﷺ واقفاً حتى أسْفَرَ جداً ـ أي ظهر ضياء الفجر واضحاً، فدفع قبل أن تطلع الشمسُ، وأرْدَفَ ـ أي أركب على ناقته ـ الفَضْلَ بن عباس، وكان رجلاً حَسَن الشعر، أبيضَ وسيماً ـ أي حسن الصورة والشكل ـ فلمَّا دفع الرسولُ ﷺ مرَّتْ به ظُعُنٌ يَجْرينَ ـ أي نساء مسافرات يمشين إلى منى ـ فطفق الفضلُ ينظر إليهنَّ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحوَّل الفضلُ وجهه إلى الشقِّ الآخر ينظر، فحوَّل رسول الله ﷺ يده من الشقِّ الآخر، على وجه الفضل يصرف وجهه عن النظر[1].

---

(١) كان الفضل ابن العباس شاباً جميل الوجه والمنظر، فخشي الرسول ﷺ عليه من النساء، فصرف وجهه عنهن، فأدار الفضل وجهه إلى الطرف الآخر ينظر إليهن فأعاد الرسول صرف نظره عنهن، خشية عليه من الفتنة، وهذا واجب الراعي نحو الأمة، أن يمنع من كلِّ ما يضرُّ بالناس.

«رميه ﷺ يوم النحر جمرة العقبة»

● **ثم مضى ﷺ حتى أتى بطن محسِّر** - وهو المكان الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل - فحرَّك قليلاً - أي أسرع سير الناقة لأن المكان مسخوط عليه - ثم سلك الطريق الوسطى، التي تخرج إلى الجمرة الكبرى - أي جمرة العقبة - فرماها بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصَاةٍ منها، رمىٰ من بطن الوادي - أي من جهة الوادي الذي يشرف على مكة -.

«ذبحه عليه السلام الهَدْيَ بيده الشريفة»

● **ثم انصرف إلى المنْحَر**، فنحر ثلاثاً وستين بيده ﷺ، ثم أعطى علياً فنَحَر ما غَبَر - أي ما بقي من الإبل - وأشرَكَه في هديِه، ثم أمر من كل بدنَة ببَضْعَة - أي بقطعة من لحمها - فجُعِلَتْ في قدر، فطُبِخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

«توجهه عليه السلام إلى مكة لطواف الإفاضة»

● **ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت** - أي طاف بالبيت طواف الإفاضة - فصلَّى بمكة الظهر، فأتى

بني عبد المطلب، يسقون على زمزم، فقال: انزعوا ـ بني عبد المطلب ـ أي استقوا الماء بالدلاء ـ فلولا أن يغلبكم الناسُ على سقايتكم لنزعتُ معكم ـ أي لولا خوفي من مزاحمة الناس لكم على السقاية لنزلت فاستقيت لكم ـ فناولوه دلواً فشرب ﷺ منه»[1].

هذه قصة «حجة الوداع» كما رواها الإمام مسلم في صحيحه على وجه التمام والكمال، اللهم ارزقنا محبته واتباعه، والتمسك بهديه الكريم.

* * *

(١) صحيح مسلم ٢/٨٨٦ ـ ٨٩٢ باب حجة النبي ﷺ.